وَلَا تُبَالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِهِ
قَدْ أُفْسِدَ الْقَوْلُ حَتَّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ(١)

غريبة الزمان

يمدحه ويذكر إيقاعه بعمرو بن حابس وبني ضبة سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة (٩٣٣م) ولم ينشده إياها:

[الكامل]

ذِكَرُ الصِّبَى وَمَرَاتِعِ الآرَامِ
جَلَبَتْ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِي(٢)
دِمَنٌ تَكَاثَرَتِ الْهُمُومُ عَلَيَّ فِي
عَرَصَاتِهَا كَتَكَاثُرِ اللُّوَّامِ(٣)
وَكَأَنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَقَفَتْ بِهَا
تَبْكِي بِعَيْنَيْ عُرْوَةَ بْنِ حِزَامِ(٤)

---

(١) لم ينس الشاعر نفسه، في خضم المدح من أن يفخر بشعره فعلى المرء ألّا يهتم بشاعر سواه، لأن هؤلاء أفسدوا الشعر، لذا فالأوجب ألّا يسمع من غيره، فالصمم في هذه الحالة نعمة لا تساويها نعمة.

(٢) يروى «مرابع» بدلاً من «مراتع». وهو المكان حيث يربعون. ذكر، الواحدة ذكرى. المراتع: المواضع حيث ترتع الماشية. الآرام، الواحد ريم: الظبي الخالص البياض. الحمام، بكسر الحاء: الموت. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بالغزل؛ لقد تذكر الشاعر أيام صباه حيث كان يلهو بفرح مع عذارى كأنهن الظباء، جمالاً وأناقة ورقة ولطافة، فإذا بالذكرى تنقله إلى ذلك الماضي البهي حيث مراتع غنّاء ملئ باللهو البريء وصدق المشاعر ممّا أمضَّ ألمه لشدّة شوقه ووجده لفراقهن، فكأنه مات لفقده فترة طهر وحبّ صادق.

(٣) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٢. الدمن، الواحدة دمنة: ما تلبّد من آثار الديار بعد مغادرة القوم لها. العرصات، الواحدة عرصة: ساحة الدار، فناؤها. لقد وقف الشاعر على تلك الأطلال الباقية التي تحوّلت إلى دمن فاقدة الروح، فقد هجرها أهلها، هناك كانت ديار محبوبته فأشجاه مرآها الحزين، فإذا بالهموم تهبّ من رقدتها ويشتد هيامه وتكثر لواعجه كتكاثر لائميه لحبّ ما عاد له وجود لتقادم عهده.

(٤) يروى «فكأن» بدلاً من «وكأن» و «وكفت» بدلاً من «وقفت». وكفت: انهمرت. =

وَلَـطَـالَـمَـا أَفْـنَـيْـتُ رِيـقَ كَـعَـابِـهَـا
فِـيـهَـا وَأَفْـنَـتْ بِـالْـعِـتَـابِ كَـلَامِـي (١)
قَـدْ كُـنْـتَ تَـهْـزَأُ بِـالْـفِـرَاقِ مَـجَـانَـةً
وَتَـجُـرُّ ذَيْـلَـيْ شِـرَّةٍ وَعُـرَامِ (٢)
لَـيْـسَ الـقِـبَـابُ عَـلَـى الـرِّكَـابِ وَإِنَّـمَـا
هُـنَّ ٱلْـحَـيَـاةُ تَـرَحَّـلَـتْ بِـسَـلَامِ (٣)
لَـيْـتَ الّـذِي فَـلَـقَ الـنَّـوَى جَـعَـلَ ٱلْـحَـصَـى
لِـخِـفَـافِـهِـنَّ مَـفَـاصِـلِـي وَعِـظَـامِـي (٤)

= عروة بن حزام: أحب عفراء ابنة عمه تربى في كنف عمه مع ابنته، ولما كبر خطبها منه، ولكن أمها طلبت مهراً لا يقدر عليه، فرحل إلى عم له ليأتي بمهر عفراء، فإذا بامرأة عمه تزوّج ابنتها من أموي من أهل البلقاء (بالشام) فلحق بها، وأكرمه زوجها، فأقام أياماً ثم رحل عنها ومات نحو سنة ٣٠هـ = نحو سنة ٦٥٠م. انظر ترجمته في الشعر والشعراء، مصارع العشاق: ١٣٢. يُتمّ الشاعر رسم الصورة التي كانت عليها تلك الأطلال، فإذا بها تبدو باهتة لكثرة الأمطار التي عرّتها عن صورتها الأصلية ومحت آثار تلك الديار.

(١) الكعاب: الفتاة الناهد وقد نهد ثدياها. لشدة حبّ الشاعر لمحبوبته التي بدأت الأنوثة تغزو جسدها بتناسقها وجمالها، كان منه أن يلثم ريق كعاب تلك الدمن، ممّا حمل محبوبته على معاتبته وإطالة عتابها له فأسكتته، فلم يعد ينطق ببنت شفة، وها هو يذكر الآن ساكني تلك الديار فيزداد شوقه وألمه لما حلّ بتلك الديار.

(٢) المجانة: الخلاعة. الشّرّة: البطر. العرام: الشراسة. حوار ذاتي يجري بين الشاعر ونفسه، لطالما لم تفكر في شبابك في الفراق وما يُحدثه من ألم في نفس المرء، وكنت تتعامل معه باستخفاف وسخرية، وذلك سببه قوّة الشباب وحيويّته وعدم تقدير عواقب ما تأتي به الأيام.

(٣) القباب، الواحدة قبة: الهوادج مراكب النساء في الرحلات. الركاب: الإبل. يستخلص الشاعر العظة من ترحّل النسوة في هوادجهن، فما يراه، إنه في الحقيقة حياة زائلة، صحيح أنه يرى هوادج تترحّل، ولكنها الحياة التي تُؤذن بالتحوّل، ولشدّة حزنه فإنه يُحسّ بموت بطيء يتسرّب إلى روحه وكيانه بارتحالهن.

(٤) النوى: البعد. يتمنّى الشاعر لو أن الذي خلق البعد والغربة يحوّل مفاصله وعظامه =

مُـتَـلَاحِـظَـيْـنِ نَـسُـحُّ مَـاءَ شُـؤُونِـنَـا
حَـذَراً مِـنَ الـرُّقَـبَـاءِ فِـي الأَكْـمَـامِ[١]
أَرْوَاحُـنَـا ٱنـهَـمَـلَـتْ وَعِـشْـنَـا بَـعْـدَهَـا
مِـنْ بَـعْـدِ مَـا قَـطَـرَتْ عَـلَـى الْأَقْـدَامِ[٢]
لَـوْ كُـنَّ يَـوْمَ جَـرَيْـنَ كُـنَّ كَـصَـبْـرِنَـا
عِـنْـدَ الـرَّحِـيـلِ لَـكُـنَّ غَـيْـرَ سِـجَـامِ[٣]
لَـمْ يَـتْـرُكُـوا لِـي صَـاحِـبـاً إِلَّا الْأَسَـى
وَذَمِـيـلَ دِعْـبِـلَـةٍ كَـفَـحْـلِ نَـعَـامِ[٤]

= حصّى تدوسها أخفاف المطايا ممّا يُوحي بشدّة معاناته وحرمانه ليحسّ بشدّة الارتباط بينه وبين حبيبته.

(١) نسحّ: نسكب. الشؤون، الواحد شأن: مجرى الدمع من الرأس. الأكمام، الواحد كمّ: الثوب مدخل اليد ومخرجه. يروى «الآكام» بدلاً من «الأكمام». يصف الشاعر لحظة ارتحال حبيبته، لقد كانت لغة الدموع تتكلّم بينهما، وتنهمر من عيونهما، وهما يتبادلان النظرات بصمت، ومخافة لفت أنظار الرقباء، فقد كان الواحد منهما يستتر فيستعمل أكمام ثوبه ليغطي بها دموعه بحذر شديد.

(٢) انهملت: انسكبت. لقد كانت تلك الدموع المنسكبة بمثابة روحين ذابتا وانصبّتا على أقدامهما، وفجأة تغيّرت مجريات الأمور وتبدلت حياة كل منهما، فأصبحت حياتهما مختلفة المصير.

(٣) سجام: غزيرة كثيرة. يتحدّث الشاعر عن حالة محبوبته وحالته، لقد كانت لغة الدموع هي الغالبة، فقد انسكبت دموعهما بغزارة، أما صبرهما فما كان بمقدار ما سكبا من الدموع، ولو كان كذلك لقلّ بكاؤهما، وذلك منطقي، فالشباب وحيويته تتطلب الإسراع في إنجاز ما يحبّون، فالصبر من طبيعة النضج العقلي وسعة التجربة لدى المرء.

(٤) الأسى: الحزن. الذميل: ضرب من السير السريع. الدعبلة: الناقة السريعة، فحل النعام: الظليم، ذكر النعام. لقد رحل القوم بعيداً فشعر الشاعر بالأسى والوحدة والوحشة، فما كان له إلّا أن يترك تلك الديار بدوره باحثاً عمّا يُسليه ويُنسيه أحزانه مستعيناً بناقة سريعة تعدو به بعيداً كالظليم في عدوها وسرعتها في القفر.

وَتَعَذُّرُ ٱلْأَحْرَارِ صَيَّرَ ظَهْرَهَا
إِلَّا إِلَيْكَ عَلَيَّ ظَهْرَ حَرَامِ[١]
أَنْتَ الْغَرِيبَةُ فِي زَمَانٍ أَهْلُهُ
وُلِدَتْ مَكَارِمُهُمْ لِغَيْرِ تَمَامِ[٢]
أَكْثَرْتَ مِنْ بَذْلِ النَّوَالِ وَلَمْ تَزَلْ
عَلَماً عَلَى ٱلْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ[٣]
صَغَّرْتَ كُلَّ كَبِيرَةٍ وَكَبُرْتَ عَنْ
لَكَأَنَّهُ وَعَدَدْتَ سِنَّ غُلَامِ[٤]
وَرَفَلْتَ فِي حُلَلِ الثَّنَاءِ وَإِنَّمَا
عَدَمُ الثَّنَاءِ نِهَايَةُ الْإِعْدَامِ[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٤. يروى «فَرْج» بدلاً من «ظهر». يتخلّص الشاعر من الغزل إلى المدح، يُردف الشاعر أن ناقته انطلقت تبحث عن الكرام، فلم تعثر إلّا على الأمير من بين الأمراء والملوك، فإذا بها بحسّها تعرف وجهته؛ فهو الحرّ الذي يستحقّ التكريم والزيارة، والشاعر بدوره لا يسعى إلّا للمثول بين يديه على ظهر ناقته دون سواه.

(٢) ينوّه الشاعر بتفرّد الأمير بجوده في زمن كثر من نقص مكارمه، فكان غريباً في مأدبة كثر فيها اللئام لبخلهم وقلّة إنعامهم.

(٣) النوال: العطاء. العلم: العلامة الدّالة عليه. يُخاطب الشاعر الأمير، فقد أصبح رمز العطاء، كثير الإفضال، فبهما يُعرف وبه يُعرفان، فبات كالعلامة لهما، يتحرّكان ويدلّان على أفعاله.

(٤) يُردف الشاعر كلامه مخاطباً الأمير، فبأعماله العظيمة صغّر كلّ عمل يقوم به غيره ويعتبره عظيماً، فإذا به يضمحلّ ويصغر شيئاً فشيئاً حتى يكاد يختفي من الوجود، وفي المقابل تكبر أعماله مع مرور الزمن، والأمير لم يكن وليد ساعته، بل إنه يُلازم الأمير منذ طفولته، وهو ينمو بترعرعه.

(٥) رفل في ثيابه: أطالها وجرّها متبختراً. الثناء: المدح. الإعدام: الفقر. يخاطب الشاعر ممدوحه، لقد أعطاه كرمه ثناءً وألبسه حُللاً بهيّة يتيه بها على الزمن، فقصائد الشعراء أسبغت عليه فضلاً لن تمحوه الأيام بفضل جوده، بينما ستذهب تلك الأموال ويبقى فضله تلهج به الألسن.

عَـيْـبٌ عَـلَـيْـكَ تُـرَى بِـسَـيْـفٍ فِـي ٱلْـوَغَـى
مَـا يَـصْـنَـعُ الـصَّـمْـصَـامُ بِـالـصَّـمْـصَـامِ؟(١)
إِنْ كَـانَ مِـثْـلُـكَ كَـانَ أَوْ هُـوَ كَـائِـنٌ
فَـبَـرِئْـتُ حِـيـنَـئِـذٍ مِـنَ ٱلْإِسْـلَامِ
مَـلِـكٌ زُهَـتْ بِـمَـكَـانِـهِ أَيَّـامُـهُ
حَـتَّـى ٱفْـتَـخَـرْنَ بِـهِ عَـلَـى ٱلْأَيَّـامِ(٢)
وَتَـخَـالُـهُ سَـلَـبَ الْـوَرَى مِـنْ حِـلْـمِـهِ
أَحْـلَامَـهُـمْ فَـهُـمُ بِـلَا أَحْـلَامِ(٣)
وَإِذَا ٱمْـتَـحَـنْـتَ تَـكَـشَّـفَـتْ عَـزَمَـاتُـهُ
عَـنْ أَوْحَـدِيِّ الـنَّـقْـضِ وَالْإِبْـرَامِ(٤)
وَإِذَا سَـأَلْـتَ بَـنَـانَـهُ عَـنْ نَـيْـلِـهِ
لَـمْ يَـرْضَ بِـالـدُّنْـيَـا قَـضَـاءَ ذِمَـامِ(٥)

(١) الوغى: الحرب. الصمصام: من أسماء السيف: الصارم البتّار. يرى الشاعر أنه من العيب أن يستعين الأمير بسيف، وهو صمصام من صفاته أنه يبتر بقوته في القتال، فليس بحاجة إلى سيف يستعين به على عدوّه.
(٢) زهت: فخرت وتكبّرت. يمدح الشاعر الأمير، إنه ملك توفّرت له أسباب الملك ولوازمها، الجاه، العظمة، القوّة، السؤدد، الغنى، المكارم، الفضائل، لذا فاق أهل زمانه وافتخر على سائر الأزمان اعتزازاً به وافتخاراً.
(٣) تخاله: تظنّه. سلب: أخذ ما لديهم بقوّة. الورى: الخلق، البشر. يُنوّه الشاعر بعظمة حلم الأمير، والحلم من طبيعة كبار النفوس الذين يحلمون رغم عظم قوتهم وشدّة بطشهم. للوهلة الأولى إذا رأى امرؤ الأمير ظنّ أنه لم يُبق لأحد من الحلم شيئاً يتحلّى به، فقد استحوذ على شتى ألوان الحلم واحتفظ بها لنفسه، فبدا سائر الناس بلا حلم.
(٤) تكشفت: ظهرت. العزمات: العزائم. النقض: الحلّ. الإبرام: العقد والربط. تثبت التجربة أن الأمير يمتاز بقوة العزيمة وعلوّ الهمّة، إنه لا يعرف التردّد في الأمور المصيرية، فإذا عزم على أمر توكّل على اللّه تعالى، لذا فهو قادر على نقض ما يريد نقضه وعقد ما يريد عقده.
(٥) البنان، الواحدة بنانة: أطراف الأصابع. النيل: العطاء. الذمام: العهد، الحقّ. وممّا =

مَـهْـلاً أَلَا لِـلَّـهِ مَـا صَـنَـعَ الْـقَـنَـا
فِـي عَـمْـرو حَـابِ وَضَـبَّـةَ الْأَغْـتَـامِ[١]
لَـمَّـا تَـحَـكَّـمَـتِ الْأَسِـنَّـةُ فِـيـهِـم
جَـارَتْ وَهُـنَّ يَـجُـرْنَ فِـي الْأَحْـكَـامِ[٢]
فَـتَـرَكْـتَـهُـمْ خَـلَـلَ الْـبُـيُـوتِ كَـأَنَّـمَـا
غَـضِـبَـتْ رُؤُوسُـهُـمُ عَـلَـى الْأَجْـسَـامِ[٣]
أَحْـجَـارُ نَـاسٍ فَـوْقَ أَرْضٍ مِـنْ دَمٍ
وَنُـجُـومُ بَـيْـضٍ فِـي سَـمَـاءِ قَـتَـامِ[٤]
وَذِرَاعُ كُـلِّ أَبِـي فُـلَانٍ كُـنْـيَـةً
حَـالَـتْ فَـصَـاحِـبُـهَـا أَبُـو الأَيْـتَـامِ[٥]

= يدلّ على عظم جود الأمير، فلو سأله امرؤ لأعطاه الدنيا بحذافيرها، ومع ذلك لا يرضى بعطائه ذلك، بل يودّ لو استطاع أن يزيده عطاءً لفعل.

(١) القنا: الرماح. قصد الشاعر بـ «عمرو حاب» عمرو بن حابس ـ بطن من أسد. ضبّة: إحدى قبائل العرب. الأغتام، الواحد غتم: من لا يُفصح لعجمته. يعجب الشاعر مما حصل على يدي الأمير من تنكيل وقتل بعمرو بن حابس وضبة، إنهم أغتام فلم يقدّروا الأمير حقّ قدره لجهلهم حين عصوه حتى أثخن بهم وفعل بهم ما فعل.

(٢) ويُردف الشاعر أن الأمير أنزل بالقوم خسفاً ودماراً، فقد لعبت بهم الأسنة وكانت ظالمة، ولم يكن ذلك إلّا لأنهم أساؤوا في تعدّيهم حدودهم، فكان الردّ من الأمير عنيفاً ليربيهم لئلّا يعودوا إلى أفعالهم الرديئة.

(٣) و (٤) الخلل: الشقوق بين شيئين. البيض، الواحدة بيضة: الخوذ. القتام: الغبار، يخاطب الشاعر الأمير منوّهاً بما فعل بالقوم، فقد فاجأهم في عقر ديارهم، فأعمل فيهم سيوفه، فإذا بالرؤوس تنتشر فوق الأرض والأجساد تغطيها، كأنها أحجار ويبدو خلالها ومضات من ضياء، والدماء صبغت الأديم بلونها الأحمر يُخالطها ألوان نجميّة تتلألأ بضوء الشمس، إنها خوذ تناثرت في ميدان المعركة والغبار يرسم لونها في السماء وتزكم الأنوف بروائح كريهة.

(٥) يُتابع الشاعر وصف تلك الصورة المحزنة، هناك ذراع مبتورة كانت في وقت ما عاملة على سدّ جوعة صغار أصبحوا أيتاماً بمقتل أبيهم، فلم يعد يُكنّى إلّا بأبي الأيتام.

عَـهْـدِي بِـمَـعْـرَكَـةِ ٱلْأَمِـيـرِ وَخَـيْـلُـهُ
فِـي الـنَّـقْـعِ مُـحْـجِـمَـةٌ عَـنِ الإحْـجَـامِ[١]
صَـلَّـى الإلٰـهُ عَـلَـيْـكَ غَـيْـرَ مُـوَدَّعٍ
وَسَـقَـى ثَـرَى أَبَـوَيْـكَ صَـوْبَ غَـمَـامِ[٢]
وَكَـسَـاكَ ثَـوْبَ مَـهَـابَـةٍ مِـنْ عِـنْـدِهِ،
وَأَرَاكَ وَجْـهَ شَـقِـيـقِـكَ الْـقَـمْـقَـامِ[٣]
فَـلَـقَـدْ رَمَـى بَـلَـدَ الْـعَـدُوِّ بِـنَـفْـسِـهِ
فِـي رَوْقِ أَرْعَـنَ كَـالْـغِـطَـمِّ لُـهَـامِ[٤]
قَـوْمٌ تَـفَـرَّسَـتِ الـمَـنَـايَـا فِـيـكُـمُ
فَـرَأَتْ لَـكُـمْ فِـي الْـحَـرْبِ صَـبْـرَ كِـرَامِ[٥]
تَـالـلَّـهِ مَـا عَـلِـمَ ٱمْـرُؤٌ لَـوْلَاكُـمُ
كَـيْـفَ الـسَّـخَـاءُ وَكَـيْـفَ ضَـرْبُ الـهَـامِ؟[٦]

---

(١) النقع: الغبار. الإحجام: التأخر. يذكر الشاعر أنه قد اعتاد على رؤية فرسان الأمير يتقدّمون دائماً إلى الأمام في المعارك ولا يعرفون التأخر أو التردّد والغبار يعانق السماء.

(٢) يدعو الشاعر أن يرحم الإله والدي الأمير وبالسقيا بصوب الغمام ليبارك قبريهما كما يدعو له بالتوفيق ودوام الحياة، آملاً أن يلتقيه، فروحه دائمة إلى جانبه.

(٣) كساك: ألبسك. القمقام: السيد الكثير الخير الواسع الفضل. قصد بشقيقه أخاه ناصر الدولة. يُتابع الشاعر دعاءه آملاً أن يُلبسه اللّه تعالى ثوب المهابة، فيبثّ في نفوس أعدائه مخافته من لدنه وأن يسعد بلقاء أخيه ناصر الدولة، فيقوى بوجوده إلى جانبه.

(٤) روق الجيش: أوله. الأرعن: الجيش المضطرب لكثرته. الغطم: البحر العظيم. اللهام: الجيش العظيم الذي يلتهم كلّ شيء. ينوّه الشاعر بشجاعة ناصر الدولة، فقد خاطر بنفسه وألقى بها في خضم جيش عظيم من جيوش الروم فكان مصيره الأسر، نتيجة تسرّعه وتهوّره وشجاعته.

(٥) تفرَّست: تأملت. المنايا: الواحدة منية: الموت. يمدح الشاعر آل الأمير، إنهم قوم تنظر المنايا بعيون الإعجاب، فهم كرام يمتازون بالصبر على المكاره في الحروب، والمنايا على علم يقيني أنهم إلى جانبها يُساعدونها على اقتناص ضحاياها.

(٦) الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. يُبدي الشاعر إعجابه بما لدى القوم من فضائل محبّبة =